قضايا

ينقسم اللبنانيون حول شرعية سلاح حزب الله. قِسْم منهم لا يعتقد أن هذا السلاح حاجة لبنانية، بينما يعتقد آخرون، خصوصاً من سكّان الجنوب، ألا بديل له في ظلّ عدم قدَرة الجيش على ردع الاعتداءات الإسرائيلية والأطماع التاريخية الصهيونية في جنوب لبنان. فما حقيقة هذه الأطماع؟

دوافع الاستيطان وخرائطه [1]

الأطماع الصهيونية في جنوب لبنان

نبيل الخوري

دخان يتصاعد بعد غارة جوية إسرائيلية على بلدة الخيام في جنوب لبنان، 2024/10/29 (فرانس برس)

منذ ما قبل الحرب الأهلية في العام 1975، ينقسم اللبنانيون في توصيف مشكلة جنوب لبنان. لو لم يتحوّل الجنوب إلى «فتح لاند» لما تعرّض للعدوان والاجتياح والاحتلال الإسرائيلي، يحاجج بعضهم. لإسرائيل تصرّفات عدوانية في جنوب لبنان «منذ ما قبل الكفاح المسلّح الفلسطيني في لبنان»، يرد بعضهم الآخر. «لو احترم الفلسطينيون، ولاحقاً حزب الله، سيادة الدولة اللبنانية وسلطتها على كامل أرضها، لكان من الممكن تجنّب العمليات العدائية الإسرائيلية ضدّ لبنان»، يجزم بعضهم. «لو كانت الدولة قويةً، وجيشها مقتدراً، لما كان ثمّة داعٍ لوجود المقاومة»، يؤكد بعضهم الآخر.

هذا الانقسام هو بشكل أو بآخر انقسام حول شرعية سلاح المقاومة، أو بالأحرى سلاح حزب الله. قِسْم من اللبنانيين لا يعتقد أن هذا السلاح حاجة لبنانية، في مقابل اعتقاد قِسْم آخر، خصوصاً من سكّان الجنوب، ألا بديل له في ظلّ عدم قدرة الجيش على ردع الاعتداءات الإسرائيلية. لتدعيم موقفهم، يذكّر أصحاب هذا الاعتقاد الثاني بالأطماع التاريخية الصهيونية في جنوب لبنان، التي ظهرت في وثائق وخرائط وأدبيات ومواقف صهيونية خلال الحرب العالمية الأولى، قبل اتفاقية سايكس - بيكو» (1916) وبعدها، ووعد بلفور (1917). فما هي قصّة هذه الأطماع الصهيونية في جنوب لبنان؟ هل يجب على اللبنانيين أن يخشوا اليوم تغييراً حدودياً وديموغرافياً نتيجة الحرب المشتعلة بين إسرائيل وحزب الله منذ الثامن من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، حين فتح الحزب «جبهة إسناد» لغزّة، بعد «طوفان الأقصى» في السابع من أكتوبر (2023)؟

كثيرة هي الأبحاث والدراسات التي تتناول مسألة الأطماع الإسرائيلية في جنوب لبنان. سبق أن تناولها الباحث أسعد رزّوق، في كتابه «إسرائيل الكبرى: دراسة في الفكر التوسّعي الصهيوني» (1968)، يوضّح فيه كيف أن طموح التوسّع الإقليمي الإسرائيلي يشمل الضفة الغربية وغزّة والقدس، وكذلك أجزاء من لبنان والأردن وسورية. وتطرق إليها الباحث خليل أبو رجيلي، في ورقة بحثية له (1972)، تثبت وجود أطماع إسرائيلية في أراضي لبنان، مسترشداً بتصريح موشيه دايان، الذي كان وزير الدفاع الإسرائيلي خلال حرب 1967، يقول فيه، من هضبة الجولان، إن «لبنان سيكون الفريسة التالية لإسرائيل». هذه المسألة مطروحة جدّياً اليوم. المؤرّخ اللبناني عصام خليفة، الذي يعالجها في مؤلفاته الأكاديمية أيضاً، لا يقلّل من جدّية المخاطر المحدقة بلبنان، ربطاً بالسياق التاريخي للأطماع الصهيونية. في مقابلة مصوّرة ضمن برنامج «سبوت شوت» في «يوتيوب» (18 أكتوبر 2024)، يشير خليفة إلى وجود «خريطة إسرائيلية تشمل صيدا»، محذّراً من مغبّة تهجير أبناء الجنوب اللبناني في ظلّ تطلّعات اليمين المتطرّف الإسرائيلي من أجل بناء «إسرائيل الكُبرى» التي تشمل لبنان، شارحاً أن «لبنان هو جزء من التصوّر التوراتي لأرض الميعاد».

توسيع الحدود

صرخة خليفة لم تأتِ من فراغ. بموازاة المواجهات العسكرية والعدوان الإسرائيلي، ثمّة حرب إعلامية ونفسية تخوضها إسرائيل على المستوى الرسمي وغير الرسمي ضدّ لبنان. يتعلّق الأمر بخطابات ودعاية لا تخلو من تلميحات علنية إلى أن أهداف إسرائيل تتجاوز مسألة حزب الله وسلاحه وإعادة مستوطني شمال فلسطين المحتلّة إلى منازلهم. ثمّة أهداف تصل إلى حدّ المطالبة باستيطان جنوب لبنان أو توسيع حدود إسرائيل حتى نهر الليطاني. كان لافتاً في هذا المضمار تصريح المتحدّث باسم الحكومة الإسرائيلية ديفيد مينسر، في 24 سبتمبر/ أيلول 2024، بأن «نهر الليطاني هو حدود إسرائيل الشمالية». يذهب وزير المالية الإسرائيلي، اليميني المتطرف بتسلئيل سموتريتش، أبعد من ذلك، عندما يعبّر عن أمله في توسيع الحدود إلى عمق الأراضي العربية التزاماً بالكتاب المُقدّس اليهودي، مضيفاً أن «قَدَر القدس أن تمتدّ إلى دمشق»، بحسب مقابلة قديمة له مع قناة Arte الأوروبية، أُعيد نشر مقتطفات منها بحلول العاشر من أكتوبر الماضي. أما كبير حاخامي الحاسيديم إسحق غنزنبورغ، فيطلق في أواخر سبتمبر الماضي دعوة علنية من أجل «استيطان لبنان (الذي هو) جزء من الأرض الممنوحة لإسرائيل... إلى نهر الفرات»، بحسب تعبيره.

> ثمّة حرب إعلامية ونفسية تخوضها إسرائيل عبر خطابات لا تخلو من تلميحات لأهداف تتجاوز حزب الله وسلاحه
>
> طوال فترة الحرب المشتعلة منذ 8 أكتوبر 2023، لم تتوقّف المبادرات الصهيونية التي تروّج لاستيطان جنوب لبنان

الترويج للاستيطان

طوال فترة الحرب المشتعلة منذ الثامن من أكتوبر 2023، لم تتوقّف المبادرات الصهيونية التي تروّج لاستيطان جنوب لبنان. «نماذج ناجحة للاستيطان من الماضي ودروس لجنوب لبنان»، هو عنوان أحد محاور المؤتمر الذي نظمته حركة «أوري تسافون» (أيقظوا الشمال)، عبر الإنترنت، في يونيو/ حزيران 2024. ولا تكتفي رئيسة حركة نحلاه الاستيطانية دانييلا فايس بالتحريض على «إقامة مستوطنات إسرائيلية في غزّة»، بل تلمّح إلى إمكانية أن تصل إسرائيل «إلى وضع يكون فيه استيطان في لبنان أيضاً»، كما ورد في مقابلة لها مع القناة 13 الإسرائيلية، في يناير/ كانون الثاني 2024.

بالإضافة إلى هذه الخطابات الرسمية وغير الرسمية أو الدينية، ينتشر أخيراً فيديو في مواقع التواصل لخريطة «إسرائيل الكُبرى»، تشمل أراضي من السعودية والكويت ومصر والعراق وسورية ولبنان، وكذلك تركيا، ناهيك عن انتشار فيديو آخر لمستوطن يقرأ لابنه قصّة أطفال عنوانها «ألون ولبنان»، تروّج لاستيطان لبنان، وفكرة أن «لبنان لنا (للإسرائيليين)»، وفضلاً عن إعلان تروجّه الحركة الاستيطانية الإسرائيلية منذ اغتيال قيادات حزب الله والأمين العام للحزب حسن نصرالله في 27 أيلول، ومفاده أن هناك «شقفاً لجنود الاحتياط ابتداءً من 300 ألف شيكل (...) أنتم (الإسرائيليون) أيضاً تحلمون ببيت كبير يطلّ على الجبال وقمم الثلوج ومجتمع دافئ في نحلات أبوتينو، سبط آشر، ونفتالي (أسماء مدن بالعبرية). نحن على بعد قرار استراتيجي واحد من هذا الحلم، لنواصل قضم جنوب لبنان ومنع سكّانه (اللبنانيين) من العودة. ساهموا بحدوث ذلك، انضموا إلينا»، في دعوة واضحة لإطلاق دينامية استيطانية إسرائيلية في جنوب لبنان.

منذ 100 عام: إلى صيدا

هذه النزعة التوسّعية ليست جديدة. يقترح الصحافي ورجل الأعمال البريطاني والقيادي الصهيوني هاري ساتشر (Harry Sacher)، منذ أكثر من 100 عام، أن تتبع الحدود الشمالية لإسرائيل «الأميال الخمسة الأولى من المجرى السفلي لنهر الأوّلي؛ ثمّ خطّ مستقيم إلى الجنوب الشرقي، يتخطّى الطرف الجنوبي للبنان وجبل الشيخ»، وذلك في كتاب من إشرافه عن «الصهيونية والمستقبل اليهودي» (1916). وفيما كانت بريطانيا وفرنسا ترسمان خريطة سايكس - بيكو لتقاسم المناطق التي كانت تحت سيطرة السلطنة العثمانية في المشرق، في العام 1916، راح القياديان البارزان في الحركة الصهيونية حاييم وايزمان وديفيد بن غوريون يطالبان بـ«توسيع الحدود الشمالية لفلسطين لتشمل المناطق المتاخمة للجزء الجنوبي من نهر الليطاني»، بحسب ما يذكر الصحافي أوليفييه بيرونيه (Olivier Pironet)، في مقالة له عن «الأحلام الصهيونية في بلد الأرز»، في ملحق خاص تصدره «لوموند ديبلوماتيك» (2020-2021). كان الصهاينة يطالبون بأراضٍ ستخضع للسيطرة الفرنسية بموجب اتفاقية سايكس - بيكو. وكانوا يعتقدون في بداية عام 1917، أثناء المفاوضات التي أدّت لاحقاً إلى إصدار إعلان بلفور (نوفمبر/ تشرين الثاني 1917) «بأن فرنسا لم تكن تكترث بالبلاد التي تقع إلى الجنوب من بيروت ودمشق، وأن المنطقة بأكملها حتى هاتين المدينتين يمكن المطالبة بها للوطن اليهودي»، كما يكتب فريدريك تشارلز هوف (Frederic Charles Hof) في رسالة جامعية عن «الصهيونية وجنوب لبنان»، في «الكلية البحرية للدراسات العليا» في مونتيري بكاليفورنيا (1979).

الحركة الصهيونية لم تكن تناور. بينما كان المنتصرون في الحرب العالمية الأولى يبحثون بشأن مستقبل خريطة العالم وكيفية إدارة السياسة الدولية بعد هذه الحرب، خلال مؤتمر السلام في باريس الذي عُقِد من يناير/كانون الثاني 1919 وحتى يناير 1920، كانت الحركة الصهيونية تطالب بحدود «للوطن اليهودي» تصل إلى مدينة صيدا. هذا ما تظهره مذكرة بشأن فلسطين قدّمتها إلى «مؤتمر باريس» في 3 فبراير/ شباط 1919. في إطار سعيها إلى اعتراف الدول في ما تدعيه من «ملكية تاريخية للشعب اليهودي لفلسطين وحق اليهود في إعادة تأسيس وطنهم القومي في فلسطين»، كانت الحركة الصهيونية تأمل بأن تبدأ حدود فلسطين «من الشمال عند نقطة على البحر الأبيض المتوسط، مجاورة لجنوب صيدا»، وأن تشمل هذه الحدود المناطق المليئة «بالمياه في سفوح جبال لبنان حتى جسر القرعون» شرقاً (...).

دوافع مائية واقتصادية

أحد دوافعها الأساسية المعلنة حينذاك يتمثّل في الثروة المائية. تقول تلك المذكّرة إن «جبل الشيخ هو (أب المياه) الحقيقي لفلسطين»، الذي «لا يمكن فصله عنها من دون المساس بأسس حياتها الاقتصادية». كذلك، تطالب المذكّرة بضرورة «التوصّل إلى ترتيب دولي يضمن حماية الحقوق المائية للناس الذين يقيمون في جنوب نهر الليطاني بشكل عام»، والمقصود هنا الاتّفاق على شروط استخدام مياه الليطاني بين الدولة التي ينبع منها، أي لبنان (المستقبلي)، والدولة التي يصبّ فيها أي الكيان الصهيوني، الذي يجب أن تصل حدوده إلى جنوب صيدا، مروراً بمصبّ نهر الليطاني، وذلك بما يخدم مشاريع التنمية في البلدين، كما تورد المذكّرة نفسها. بمعنى آخر، كان التحكّم بالثروة المائية في لبنان يمثّل مسألة حيوية وفق المنظور الصهيوني للكيان قيد التأسيس: «الحياة الاقتصادية في فلسطين، شأنها شأن أي دولة شبه قاحلة، تعتمد على إمدادات المياه المتاحة. لذلك، من الضروري بشكل حيوي، ليس فقط تأمين جميع مصادر المياه التي تغذّي البلاد أصلاً، بل أيضاً القدرة على الحفاظ عليها والتحكّم فيها من مصادرها»، بحسب مذكرة 3 فبراير 1919.

(كاتب وأستاذ في الجامعة اللبنانية)

«وطن يهودي» حتى صيدا

بينما كان المنتصرون في الحرب العالمية الأولى يبحثون بشأن مستقبل خريطة العالم وكيفية إدارة السياسة الدولية بعد هذه الحرب، خلال مؤتمر السلام في باريس الذي عُقِد من يناير/كانون الثاني 1919 وحتى يناير 1920، كانت الحركة الصهيونية تطالب بحدود «للوطن اليهودي» تصل إلى مدينة صيدا. هذا ما تظهره مذكرة بشأن فلسطين قدّمتها إلى «مؤتمر باريس» في 3 فبراير/شباط 1919، في إطار سعيها إلى اعتراف الدول بما تدعيه من «ملكية تاريخية للشعب اليهودي لفلسطين وحق اليهود في إعادة تأسيس وطنهم القومي في فلسطين»، كانت الحركة الصهيونية تأمل أن تبدأ حدود فلسطين «من الشمال عند نقطة على البحر الأبيض المتوسط مجاورة لجنوب صيدا»، وأن تشمل المناطق المليئة «بالمياه في سفوح جبال لبنان حتى جسر القرعون» شرقاً.